اسم ولقب المؤلف المراسل: د. حسين حليمي/ الصفحات: من 59 إلى: 65
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

استقراء الأنساق المضمرة في فكر الجاحظ – دراسة ثقافية في كتاب البخلاء -

د. حسين حليمي
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف(الجزائر)
halimihoussyen@gmail.com

*****

تاريخ الإيداع: 2021/05/23 تاريخ القبول:2021/06/02 تاريخ النشر: 2021/06/18

الملخص باللغة العربية

تروم هذه الورقة البحثية في استقراء التراث العربي وفق منهج من مناهج ما بعد الحداثة وهو النقد الثقافي ، حيث أسعى من خلال هذه المداخلة استعراض جملة من الأنساق المضمرة في الأدب الجاحظ ،لا يخفى على الدارسين أن كتاب البخلاء أحد الكُتب التي كان لها بُعدا أيديولوجيا وسياسيا واجتماعيا حاول الجاحظ من خلاله أن يسلط الضوء على جملة من القضايا كانت سائدة أنا ذاك في قالب هزلي فكاهي تتماشى وفق تصورات الجاحظ ولأجل ترصدها وقع اختياري على منهج النقد الثقافي كمنهج أوظفه للقبض على مختلف الأنساق المضمرة في كتاب البخلاء و تتبُعها وفق ما تقتضيه الضرورة و إعطاء الدراسة نوعا من الجدية التي تميط اللثام على ما يكتنزه التراث من قضايا دسيسة . إجابة على إشكالية مفادها فيما تتحدد الأنساق المضمرة في كتاب البخلاء؟ وما الهدف الذي يرمي إليه الجاحظ في كتاب البخلاء ؟ و هل له علاقة بنقد الوضع السياسي و الاجتماعي و الإيديولوجي في العصر العباسي ؟ وستكون اجابتنا على هته الإشكاليات من خلال استعراض منهج النقد الثقافي في تحليل كتاب البخلاء

الكلمات المفتاحية: الأنساق ،النقد الثقافي ،البخلاء ،التراث ،الجاحظ

***ABSTRACT* :**

. This research paper aims to extrapolate the Arab heritage according to one of the postmodern approaches, which is cultural criticism, as I seek through this intervention to review a number of the systems included in the literature of protracted literature. It is no secret to scholars that the book of miserly is one of the books that had an ideological, political and social dimension. Through it, Al-Jahiz tried to shed light on a number of issues that were prevalent I that in a comic and comic form in line with the perceptions of Al-Jahiz and in order to monitor them, I chose the method of cultural criticism as a method I employ to capture the various forms included in the book of misers and follow them as required by necessity and give the study A kind of seriousness that unveils the intriguing issues of the heritage.

Keywords*: *Styles, cultural criticism, miserliness, heritage, Al-Jahiz

نص المقال:

يقودنا الحديث عن مكاشفة الانساق المضمرة في كتابات الجاحظ لتسليط الضوء على عينات جديدة من أدب الجاحظ الذي تميز باختلافه عن بقية البلاغيين العرب، فكان الجاحظ راصدُ لظواهر سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية في كتبه فارتأيت تسليط الضوء على كتاب البخلاء لأجل استجلاء أهم التيمات التي تضمنها كتاب البخلاء وفق ما يستدعيه النقد الثقافي .

ساير النقد الثقافي في نقد ما بعد الحداثة وظيفة البحث عن معاني خفية في نصوص أدبية أي البحث عن ميتافيزيقا النّص أو الخطاب فمكاشفة الأنساق المضمرة في النّص هو تشريح وبحث عن العلاقة الإنتاجية في النصوص ،فالنقد الثقافي يشاكل في وظيفته البحث في وظائق الانساق المضمرة ومقاربة "فالدراسات الثقافية كسرت مركزية النّص و لم تعدّ تنظر إليه بوصفه نصا أو دلالة ،وإنما صارت تقارب النص من حيث ما يتحقق فيه و ما يكشف عنه من أنظمة ثقافية "[1] فالمقاربة النصوص من وجهة النقد الثقافي تستدعي حضور اللافت للإديولوجيات وتاريخانية الجديدة التي تسهم في قراءة مضامين النصوص .

عاش الجاحظ في بيئة مكهربة استدعت منه أن يكون بارعا في كتابة نصوصه وأن تكون لها وظيفة تتحدد فيما تقدمه من قراءات تفتح البعد التأويلي ،فحديث الجاحظ عن ظاهرة البخل التي كانت سائدة في العصر العباسي يقودونا الى استقراء ما جاء في كتاب البخلاء بحثا عن المخبوء في نصوص الجاحظ وأهم القضايا التي سلط الضوء عليها .

إن الحديث عن الطمع والبخل في العصر العباسي من أهم القضايا التي طرق بابها الجاحظ اذْ يقول "و الدليل أن ليس بهم خوف الفقر وأن الجمع والمنع إما أن يكون منهم أو طبيعة فيهم ،أنك قد تجد الملك بخيلا ومملكته أوسع وخرجه أدر، وعدوه أسكن، وتجد أحزم منه جوادا، وإن كانت مملكته أضيق وخرجه أقل وعدوه أشد حركة"[2]. توحي المقولة بأن هناك عدة أنساق تضمنتها المقولة فالحديث عن البخل عند الجاحظ

اسم ولقب المؤلف المراسل: د. حسين حليمي/ الصفحات: من 59 إلى: 65
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

هو استحضار للنسق الاجتماعي الذي بدا مرافقا لكتابات الجاحظ اذْ يعكس مدى التذمر الكبير من الوضع الذي صارت عليه الدولة العباسية، فقوله إما أن يكون عادة منهم أو طبيعة فيهم هو كلام وجهه الجاحظ لدخلاء على الدولة العباسية وهو قذف للفرس من حيث تبنيهم لصفة البخل ونقلها إلى الدولة العباسية وما يعكس هذا بأن طبيعة العربي الأصيل عُرفت بالكرم ولنا مثل في التراث العربي يقال أجود من حاتم نظرا للكرم والجود الذي كان يتميز به العرب آنذاك. فمسائلة الشق الثاني من النص يقودنا للحديث عن البعد الإديولوجي للجاحظ و ما تستدعيه الظروف الراهنة آنذاك نظرا لانتشار الشعوبية واختلاط العرب بالفرس وما نتج عنه من عادات وصفات دخيلة على المجتمع العربي .

ويوجه الجاحظ خطابه كذلك إلى حكام الدولة العباسية آنذاك وصاحب فترة حكمهم من فساد طاغ على الأمصار والدويلات وهذا يتجلى في قوله قد تجد الملك بخيلا فهذا يعكس الوضع سياسي الذي انتهجه الحكام الدولة العباسية وهذا يعكس مدى التعارض الصريح ما بين الجاحظ ونظام الحكام وهذا يجعل ما نلحظه في النص الذي أوردناه .

فالنقد الثقافي في هذه المحطة يعتمد على المرجعيات الفكرية والايديولوجيات لأجل مكاشفة الأنساق فهذا يقودنا إلى "مساءلة البنى النصية بوصفها حوادث ثقافية ومن ثم اكتناه أبعادها و مضمراتها النسقية التي تبدو هي الأخرى على و شيجة تامة بالسياقات الثقافية و الظروف التاريخية التي انتجتها"[3]، يعكس هذا القول بأن اشتغال النقد الثقافي وفق ظروف سياقية .

ويعرض لنا الجاحظ مظهرا أخر اذ يقول على لسان سهل بن هارون: "إن للغنى سكرا ،وإن للمال لنزوة، فمن لم يحفظ الغنى سكر الغنى ،فقد أضاعه ،ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله "[4] يعكس هذا القول مدى سخط الجاحظ على أصحاب المال و نظرتهم إلى الناس وكيف انعكست الموازين وأصبحت الناس تولي اهتماما كبيرا للغني وأن كل الأنظار توجه اليه و جميع الناس تلهث وراءه. وهذا يقودنا الى استقراء

المشهد الاقتصادي حيث يقدم الجاحظ نقد لاذع للحكام الدولة العباسية الذين جعلوا الوضع الاقتصادي مزريا نتيجة عدم اللامبالاة في مراعاة الرعية واوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ما جعل التكالب حول الأغنياء بغية التقرب منهم .

يعكس لنا هذا النّص نسقا مغايرا لما عرفه العرب سابقا اذْ أصبحت النفس تميل إلى الطمع والبحث عن المنفعة الذاتية بدل المنفعة الجماعية .

التورية :

يصور الجاحظ أن البخلاء يجتمعون مع بعضهم بعض وهم يُطلقون مصطلح الاقتصاد في النفقة اذْ يقول :"اجتمع ناس في المسجد ،ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة و التنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع "[5] يعكس هذا القول مدى الإهانة الشديدة التي الصقها الجاحظ بالبخلاء حيث عرض بأنهم اجتمعوا في بيت الله و الله داع إلى الإنفاق فهذا القول ينم عن خطاب مضمر مفاده أن هؤلاء البخلاء هم من المصلين وأن هذه العادة وما يدل على ذلك توظيفه لكلمة الانتحال فهي في حد ذاتها تورية وهو مصطلح وظفه النقد الثقافي ويقصد بها "أن مصطلح التورية أنتج بعدين دلاليين أحدهما قريب و الآخر بعيد"[6] فمصطلح الانتحال الذي وظفه الجاحظ للدلالة على مدى تعارض البخل مع صفة الإيمان حسب تعبير الجاحظ و أن رصد اجتماعهم في المسجد الذي هو منبر خير و مكان ايثار ونفقة .

الجملة الثقافية :

يسعى النقد الثقافي الى تتبع الأنساق المضمرة وفق جملة من العناصر و من بين هذه العناصر الجملة الثقافية الذي أورده الغذامي في مشروع الثقافي وهو "مفهوم يمس الذبذبات الدقيقة للتشكل الثقافي الذي تفرزه صيغة التعبيرية المختلفة وبهذا تكون الجملة الثقافية متولدة عن الفعل النسقي في المضمر الدلالي

للوظيفة النسقية في اللغة"[7] فهذا يحيلنا ان الجملة الثقافية هي تركيب يخدم النسق و يجعل منه حمال أوجه من حيث الدلالة .

يسلط الجاحظ الضوء على قضية هامة وهي فقد الثقة ما بين الرعية والحاكم وهي نتيجة انتشار الشعوبية ومحاربة العرق العربي الذي بات مهددا في عصر الدولة العباسية و مدى امتداد الذات البخيلة في أوساط المجتمع " لقد مدحت ما لام الله وحسنت ماقبح وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك ،وقد جعلنا ثواب عملك سماع قولك فما نعطيك شيئا"[8].

يعكس هذا القول الجملة الثقافية التي تحدث عنها الغذامي اذ يعكس هذا القول رد عن تساؤل ونفي لصفة البخل وهذا ما يعطي صورة عن الوضع الاجتماعي آنذاك وهذا ما يجعل تسليط الضوء على الوضع الاجتماعي في العصر العباسي الذي كان مخالفا للبيئة العربية الأصيلة التي كانت تُعرف بالجود و الكرم .

وفي ختام هذا البحث أن نجد أن الجاحظ قدم كتاب البخلاء كتصوير للحالة السياسية و الاجتماعية والاقتصادية التي تخللها العصر العباسي و الكتاب هو نقد لاذع للسلطة آنذاك وما خلفه استهتارهم من تدعيم الطبقية وتقسيم المجتمع ،وما خلفه دخول الفرس الى الدولة العربية ،فظهرت الشعوبية كتيار موازي فرقت ما بين أبناء الجنس الواحد .

قال ثمامة:" لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدام الدجاجة إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب " قال: "فعلمت أن بخلهم شيء طبع في البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم[9].

ثم اندفع شيخ منهم فقال: «لم أر في وضع الأمور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها، كمعاذة العنبرية» .

قالوا: «وما شأن معاذة هذه» ؟

قال: أهدى إليها العام ابن عمّ لها أضحية . فرأيتها كئيبة حزينة مفكّرة مطرقة، فقلت لها: مالك يا معّاذة؟ قالت أنا إمرأة أرملة وليس لي قيّم ، ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي. وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقّه. وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها. وقد علمت أن الله لم يخلق فيها، ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه. ولكن المرء يعجز لا محالة. ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير: أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف، ويسمّر في جذع من أجذاع السقف، فيعلق عليه الزّبل والكيران، وكل ما خيف عليه من الفأر، والنمل والسنانير، وبنات وردان، والحيّات، وغير ذلك. وأما المصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا الى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس، واللحيان، وسائر العظام، فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق، ثم يطبخ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة، ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها، فلم ير الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه، وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر، لقلة ما يخالطها من الدخان. وأما الإهاب فالجلد نفسه جراب . وللصوف وجوه لا تعد. وأما الفرث والبعر، فحطب إذا جفّف عجيب"[10].

ثم قالت: "بقي الآن علينا الانتفاع بالدم. وقد علمت أن الله، عزّ وجلّ، لم يحرّم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه، وأن له مواضع يجوز فيها، ولا يمنع منها؛ وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به، وصار كيّة في قلبي، وقذّى في عيني، وهمّا لا يزال يعودني"[11] يتأتى من هذا القول بأن الجاحظ استعرض معالم الحياة الاجتماعية و ترصدها لحظة بعد لحظة ،إذ سعى أن يبرز قيمة المرأة في مسايرة الأوضاع وإيجاد الحلول للأزمات و هذا يوضح أن الجاحظ صاحب حنكة حيث عرض قصة في أسلوب مشوق يجذب القارئ وذو بعد ايدولوجي يعكس الحياة العباسية .

و سعينا من خلال هذه الدراسة إلى ابراز الأنساق المضمرة في كتاب البخلاء في ضوء تحديات النقد الثقافي الذي عاد منهجا محايثا عقدنا من خلاله مقاربات وفق منهج النقد الثقافي .

هوامش البحث:

[1] محمود خضير الحياني ،المناهج النقدية، ص209

[2] الجاحظ، البخلاء ،ص 242

[3] يوسف عليمات ،النسق الثقافي قراءة ثقافية في انساق الشعر العربي القديم ،عالم الكتب الحديث،ط1، 165،2009

[4] الجاحظ ،البخلاء،ص41

[5] نفسه، ص59

[6] سمير خليل ،النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب ،دار الجواهري ،بغداد ،ط1،ص29

[7] م س، ص31

[8] محمد علي الخطيب، الصراع الأدبي مع الشعوبية الجاحظ، ص37

[9] الجاحظ ،البخلاء ،ص18

[10] م س،ص33

[11] م س، ص33